من العراق الى انكلترا

في القرن الثالث عشر

كان منتصف القرن الثالث عشر منقلب تاريخ العراق والمؤذن باضمحلال الخلافة العباسية واستتباب الدولة المغولية في بغداد . وكان بين سلاطين المغول من عزّ النصرانية ودان بها وانزل رؤساءها منزلة سامية فبلغ النصارى في بغداد اوج المجد وقمة الفخر في عهد البطريرك يابالاها الثالث وقد جاء ذكر ذلك في التاريخ . قال صاحب كتاب المجدل : وقال ابي البطريرك يابالاها « من العز والجاه والسلطان ما لا نالهُ احد من قبلهِ حتى ان ملوك المغول والقاآنية(١) واولادهم كانوا يكشفون رؤوسهم ويتبركون قداسة وتنفذ حكمهُ في جميع الممالك بالشرق وارتفع النصارى في ايامهِ الى عزٍّ عظيم وجاهٍ كبير . اه » . والسرّ في ذلك ان يابالاها كان مغولي المحتد من بلاد الخطا(٢) حيث القى دعاة النسطرة عصا ترحالهم منذ القرن الخامس او السادس ونشروا النصرانية بين ظهراني القوم كما تشهد الآثار بصحة ذلك (٣) . وكان قدوم يابالاها الى بلاد بين النهرين عهمة دينية بصحبةِ ربان صوما اسامة ومنتقلهُ الرهبانية ولمّا لم يتمكن من القيام بها بقي في العراق حتى تبوّأ كرسي البطريركية وتمكن من موالاة ملوك المغول ردحاً من الزمان الا ان الدهر الخؤون قلب لهُ ظهر المجن سريعاً فتقموا منهُ ومن بني قومهِ . وبين الحقبتين امر ذو بال وبين العهدين بعثة سياسية نجملها موضوع كلامنا في هذه المقالة

بعث السلطان ارغون وفداً سياسياً من بغداد الى ايطاليا ففرنسا فانكلترا . وكان الغرض من هذه الوفادة الاستيلاء على فلسطين وسورية ومحاربة اصحابها .

---

(١) القاآنية لقب ملوك المغول واسرائهم ويراد تصحيف الى لقب خان المستعمل في الدولة العثمانية

(٢) كانت بلاد الصين تقسم عند امم الشرق الى قسمين الصين العليا او الشمالية وتسمى الصين او الماجين او بلاد الخطا وقصبتها خان بالق او بكين . والصين السفلى او الجنوبية وكانت تسمى ماجين وقصبتها خمدان او نانكين

(٣) الآثار التي تشهد بازدهار النسطرة في بلاد الصين كثيرة اشهرها ان انكلدان بذهبون الى ان قوماً من الرسوز نشر بالنصرانية بلاد الفرس والعراق والهند والصين . وقد ذكرت اسقفية الصين عند النساطرة مراراً عديدة في التاريخ وآخر ذكر جاء عنها سنة ١٥٠٤ . وعثر النقبون حديثاً على اثر قديم في سنغان فو من بلاد الصين عليه كتابة كلدانية ترقى الى سنة ٧٨١ م

وكان المغول منذ عهد هولاكو يرغبون في الاستيلاء على تلك البقاع وقد استولى هولاكو على سورية زمناً يسيراً ثم اجلي عنها لاسباب يطول بنا شرحها وبقي خلفاؤه ابقا وارغون يعللان النفس بالرجوع اليها لدى سنوح الفرص لهما . وقد ارغون سفارة في اثر سفارة لتحقيق هذه الامنية فوفد الوفود الى اوربا وكان من بينهم ربان صوما وروفائيل الذين انتدبهم الى ملوك الغرب ليستنجدهم في فتح فلسطين

غادر بغداد سنة ١٢٨٧ وقد مؤلف من ربان صوما ورصوما والوجيه سيادين ارشاون اي النصراني باللغة المغولية وتوما الانقوسي وترجمان يدعى وكوتو . وزودهم ارغون شيئاً كثيراً من نفائس الهدايا الى كل من الملوك الذين رغب في استمالتهم الى محبته . وبعد سفر طويل القوا عصا تسيارهم في القسطنطينية عاصمة المملكة البزنطية . فسير رصوما رجلين من حاشيته الى الملك يخبره بقدوم وفود الملك ارغون فامر الملك رجاله ان يدخلوا بهم المدينة بحفاوة تامة وعظيم تجلة واحترام وينزلوهم قصراً فخماً . وبعد ان اخذوا نصيباً من الراحة واجهوا الملك اندرونيكس الثاني الذي كان جالساً يومئذ على كرسي بزنطية (١٢٨٢ — ١٣٢٨) . فبسط لهم من الاكرام ما نعموا به عيناً . ولما رأى ربان صوما مآثر اللطف هذه توسل الى الملك ان يأمر من يطوف بهم ليزوروا الكنائس والمعابد ومدائن الائمة والبطاركة فاوعز الى اقطاب المملكة واعيان العاصمة بمرافقتهم على بغيتهم . وكان من المعاهد الدينية التي زاروها كنيسة ايا صوفيا الشهيرة ذكرها ربان صوما في رحلته وابدع في وصفها ووصف الآثار الدينية التي شاهدها . وبعد ان قضوا وطراً من اقامتهم في تلك الحاضرة الزاهرة استأذن رئيس الوفد الملك فبرحرها وركبوا البحر . ولم ترس بهم السفينة الا بعد شهرين في مرفإ نابولي فقابلوا الملك كارلوس الثاني واوفدوه على قصدهم من هذا السفر والغرض من بعثتهم . ومما شاهدوا هناك الحرب التي كانت رحاها دائرة بين ملك نابولي هذا وبين جاك الثاني ملك اراكون . ومما عجب منه ربان صوما كل العجب ان الفريقين لا يتعمدون في حروبهم اذى الاقوام المعادية الا من كان مقاتلاً لهم خلافاً لما كان يعهده سابقاً اذ كان يرى المحاربين في بلاده يستحون سفك دم المرأة في بيتها وينكلون بالشيخ في فراش عجزه ويتثنون بالطفل في مهده

وبعد ايام استقلوا الجياد وساروا الى نابولي فقطعوا بلاداً خضراء ناضرة ولم يعثروا

في سيرهم على بقعة ما مجدبة . ولم يرحلوا عن تلك الديار حتى بلغهم خبر وفاة البابا هنوريوس الرابع في ثالث نيسان من سنة ١٢٨٧ ولما بلغوا رومة عاصمة النصرانية علموا ان الكرادلة اجتمعوا لانتخاب خلف للبابا . فبعث برصوما ينبئهم بقدومه فاذنوا لهُ في الدخول عليهم وقام ببعض مراسيم لتنوهُ اياها كانت مألوفة يومئذٍ عندهم . ثم رغب الكرادلة الى ربان صوما في ان يقرر صورة ايمانهِ ففعل ولكنهم اطالوا الجدال معهُ حتى اعلمهم بانهُ نزل رومة لغير هذه الغاية وان اهم ما لديهِ ان يزور المشاهد الدينية ويوقفهم على نية الملك والجثليق فيما يخص الاراضي المقدسة . فامر الكرادلة حاكم المدينة وبعض الرهبان ان يطوفوا بالوفد في الكنائس ويطلعوهم على الآثار المصونة وجليل الذخائر فزاروا تلك المعاهد وتيمموا عكنوناتها ثم انقلبوا راجعين الى الكرادلة وقد لاحت على وجوههم امارات السرور لما شاهدوا مما انعش فيهم الشواعر الدينية . اما المهمة السياسية التي كانت غرض بعثتهم الوحيد ولاجلها عانوا مشاق السفر فقد باتت عقيمة لخلو الكرسي الرسولي او تأجلت المفاوضة فيها الى انتخاب البابا الجديد

يمم الوفد فرنسا بعد ان اقاموا في رومة برهة ومروا في طريقهم بتسكانيا وجنوى ولاقوا من العز والاكرام من اهالي تلك الاصقاع ما يعجز عن وصفهِ القلم ويكل عن ذكرهِ اللسان واخيراً بلغوا عاصمة الفرنسويين قبة العمران وبيضة المدينة فامر الملك فيليب الجميل من استقبالهم احسن استقبال واكرم مثواهم وانزلهم على الرحب والسعة . وبعد ثلثة ايام انفذ الملك اميراً من جلة امراء المدينة الى ربان صوما يدعوهُ اليهِ فلبى الدعوة ولما مثل بين يديهِ وقف الملك اكراماً لهُ واخذ يحادثهُ بارق العبارات ثم سألهُ عن بغيتهِ والغرض من بعثتهِ فاجابهُ بان ارغون ملك المغول وبابالاها جثليق الشرق افتداهُ مستنجداً ملوك الغرب في فتح فلسطين . واسترسل في ايضاح مهمتهِ وما يتوقف عليها من الامور الخطيرة ثم قدم للملك الرسائل والهدايا مما معهُ فقبلها الملك فيليب الجميل بكل ارتياح ووعدهُ خيراً بيد انهُ عجب من اهتمام الملك المغولي بمسئلة الاراضي المقدسة . وبعد ان تحادثا طويلاً اطرق الحديث ودرسا المسئلة درساً دقيقاً استأذن برصوما الملك في ان يسمح لهُ بزيارة المعاهد الدينية ودور العبادة ومعاهد العلم والمنتديات العمومية فاجابهُ الى ملتمسهِ وامر رجالهُ بان يأخذوا الوفد الى تلك الاماكن .

فشاركها ربان صوما جميعها واحسن وصفها في رحلته . ومما ذكرهُ فيها انهُ شاهد ثلاثين الف تلميذ في باريس يتلقون العلوم ويرضعون افاويق الآداب والفضيلة في المدارس والاديرة . ومما هو قمين بالذكر ان فيليب الجميل بعث بعد ذلك بعثة سياسية الى الملك ارغون يذكرها التاريخ فنجتزىء بالاشارة اليها

سافر برصوما ورفقاؤهُ من باريس متوجهين الى انكلترا لمواجهة الملك ادورد الاول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) وكان مقيماً يومئذٍ في كاسكونيا فلما دنا الوفد من المدينة خرج سكانها يسألونهم من انتم فاجابوهم بانهم وفود الملك والجثليق وامراء المغول . ولما بلغ الخبر الملك سرّ بهذا النبأ وتضاعف سروره عند ما علم ان الوفود قصدوهُ يستنجدونهُ في فتح فلسطين وكانت البلاد قبلة آمالهِ . ولما مثل الوفد بين يدي جلالتهِ قدموا لهُ الهدايا والرسائل فامر الملك ربان صوما بان يحتفل بالتداس على مراسم الشرقيين وشعائرهم وحضر الملك الحفلة الدينية وتناول من يد ربان صوما وكان ذلك اليوم مشهوداً لم يسبق لهُ نظير في مؤسسات الغرب والشرق

وزار ربان صوما المدينة وشارف ابنيتها ووقف على طبائع اهلها ووجدة معتقدهم لاسيما وان الملك ادورد ذاكرهُ بهذا فعجب منهُ وكانت اوربا يومئذٍ على مذهب واحد من النصرانية خلافاً للشرق حيث كانت المذاهب قد تعددت . ومن ثمَّ انقلب الوفد راجعاً وقد اثقلهُ الملك بالهدايا الى ارغون والجثليق يبالاها . وهنا لا يسعنا ان نضرب صفحاً عن رسوح تلك العلاقات التي وطد سببها وعزز اركانها الراهب البطوري بين ملك انكلترا وبين ملك المغول وجثليق الشرق ففي ١٢ آذار سنة ١٣٠٢ انفذ ادورد الاول من وستمنستر رسالتين الواحدة الى الملك ارغون والثانية الى يبالاها جثليق الشرق على النسطرة وكان حامل الرسالتين رجل من الانكليز يدعى جوفروى ذي لنكل وكان معهُ رجلان آخران احدهما يدعى نيقولا ذي شارتر . وانضم اليهم رجل آخر في جنوى اسمهُ بنكاريل وابن اخيهِ كونراد وبرسيفال ذي جنوولف فجابوا بلاداً كثيرة ومروا بمدن عديدة لجهلهم عاصمة المغول التي لم تبرح متحولة من مدينة الى غيرها . ومن المدن التي زاروها طورس وماردين وارضروم وبيبورت في بلاد ارمينية وغيرها من البلاد والاصقاع

وكانت صنعة السكر مؤلفة من اشياء كثيرة كالفراء والالبسة والاسلحة والسجاد والآنية الفضية . ومن غريب ما يذكر في رحلة هذه البعثة ان كان لها مظلة (شمسية) تمزقت فابتاعت غيرها في طورس . وقد سنحت لنا يد الحدثان نصّ الرسالتين اللتين بعث بهما الملك ادورد الاول الى ارغون وبالاها وكان بودنا ان ننشرهما في هذه العجالة لولا ضيق المكان

ثم نعد الآن الى ربان صوما فانه بعد ان عاد من انكلترا الى باريس قفل راجعاً الى جنوى حيث قضى موسم الشتاء وهناك واجه وكيل البابا انعام الكردينال جان دي توسكلوم وشكا اليه الاحوال فوعده خيراً . ولما عاد الكردينال الى رومة ذكر الراهب الشرقي عند البابا نيقولاوس الرابع فبعث البابا يستدعيهم الى رومة فساروا اليها ومثلوا بين يديه وقاموا بالمهمة السياسية التي عهد اليهم فيها ثم عادوا الى الوطن . ويجتزىء بما ذكرنا والاسف ملء القلب لما لاق السافرة في هذه الحرب الطاحنة من المحن والاحن التي كادت تودي بالبقية الثروة من هذا الشعب الكريم

ي . ر . غنيمة

السكر من البنجر

مقتطفة من مقالة في مجلة نشر الانكليزية

كان السكر المستهلك في اوربا يصنع قبلاً من قصب السكر وكان معظم هذا القصب يستورد من جزر الهند الغربية . ولكن عرف منذ اواسط القرن الثامن عشر ان السكر الذي يستخرج من قصب السكر يمكن استخراجهُ ايضاً من نباتات اخرى . ففي سنة ١٧٤٧ اعلن الكيماوي مرغراف ان هذا النوع من السكر موجود في البنجر وكان البنجر يزرع حينئذ بكثرة في سليزيا علفاً للبهائم . وقام على ردّ تلميذه اشار الفرنسوي وكان يمكن المانيا فزرع البنجر في اراضيه وبنى معملاً صغيراً لاستخراج السكر منهُ . فنجح في عمله هذا نجاحاً حمل الملك فردريك وليم البروسي سنة ١٨٠١ على تعيين مال لبناء معامل يستخرج السكر فيها من البنجر . وعليهِ يقال بوجه عام ان صناعة السكر نشأت في القرن الثامن عشر